فيض الباري

شرح

صحيح البخاري

من أمالي الفقيه المحدث إمام العصر الشيخ محمد أنور الكشميري الحنفي

وتعليقات الشيخ محمد بدر عالم الميرتهي

المسماة بـ:

البدر الساري إلى فتح الباري

تحقيق

أحمد عزو عناية

الجزء الأول

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف ٥٤٠٠٠٠ - ٥٤٤٤٤٠ فاكس ٨٥٠٧١٧ - ص.ب.١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel: 540000 - 544440 Fax: 850717 P.O.box 7957/11

E-mail: darcta@cyberia.net.lb

فيض الباري
شرح صحيح البخاري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله.

وبعد:

فلا شك ولا ريب أن الحديث الشريف هو المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، فهو مفسر للقرآن الكريم، ومبين لمعانيه؛ فلذلك انصرف السلف الصالح، والعلماء الأجلاء من هذه الأمة لخدمته والعناية به، فبذلوا في سبيل ذلك كل ما يستطيعون، وتحملوا كل الصعاب في سبيل حفظه ورعايته، والذبِّ عنه، فجزاهم الله عن هذه الأمة خير الجزاء.

أيها القارىء الكريم: إن من فضل الله تعالى عليَّ وكرمه أن شرفني بخدمة هذا الكتاب، وإخراجه بحلة جديدة، فأرجو أن أكون قد وفقت لذلك.

عملي في الكتاب:

١ ـ قابلت الكتاب على الطبعة الهندية المصورة في المكتبة الحقانية.

٢ ـ أدرجت متن صحيح البخاري ضمن الشرح.

٣ ـ خرجت الآيات القرآنية.

٤ ـ خرجت أحاديث صحيح البخاري على الكتب الستة وفق تخريج الإمام المزي في تحفة الأشراف.

٥ ـ خرجت الأحاديث المستشهد بها.

ـ وفي الختام: أتوجه بالشكر إلى كل من ساهم في إنجاز هذا العمل المتواضع.

وأقول: إنني لم أدع الكمال في عملي هذا، ولكن أسأل الله تعالى أن يحفظ ألسنتنا وأقلامنا من الزلل، والحمد لله رب العالمين على التمام والكمال.

كتبه: أحمد عزو عناية

في يوم الثلاثاء/ ١٢/ صفر/ ١٤٢٦هـ

الموافق لـ/ ٢٢/ آذار/ ٢٠٠٥م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كلمة شُكر

وما لي لا أشكر الله عَزَّ وجلَّ وهو الذي وَفقَّني لجمع هذه الأمالي وتأليفها، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]. فهذه نعمة مِنْه وفضل. ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، اللهم ما كان بي من نعمة أو بأحدٍ من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمدُ والشكر.

وكيف لا أشكر قوماً أولي هِمَّة علياء، أعضاءَ جمعية العلماء في جُوهانْسبرج (إفريقيا الجنوبية)، لِمَا تكلّفوا لطبعه وبذلوا فيه نفقةً غيرَ قليلة، وهم أصحاب علم وفضل، فكانوا أحقَّ بهذا الكتاب، والكتابُ أحقَّ بهم، فإنَّ كلمةَ الحكمةِ ضالةُ الحكيم، فهو أحقُّ بها حيثما وجدها.

وكيف أنسى الذي كان من أخصّ تلامذة إمام العصر شيخنا الذي قعد إليه عدة أشهر، وقام عنه بحظ وافر من علومه، ذا بيان وبَنَان، وعلم وإمعان، وضبط وإتقان، وذوق ووجدان، وهو الفاضل مولانا محمد يوسف البَنُّوري الذي ينتهي نسبه إلى العارف السيد آدم البَنُّوري ثم المدني رحمه الله تعالى،الأستاذُ بالجامعة الإسلامية بدابهيل، فإنه كان عمدتي في ذلك.

وأما الفاضل الأفخم السيد أحمد رضا، ناظم المجلس العلمي، فهو أولى الرجال بأن أشكره، فإنه نظم أمره،وكابد المشقة فيه.

هذان الفاضلان قد قاسيا عناءً بالغاً في تصحيح الأصول وإزالة تشويهها بما تيسّر لهم، فأشكر هؤلاء النفوس الزكيات وجميع من أعانوني في أمري بمجاميع قلبي، وأقول لهم مخاطباً، وحَيَّا اللَّهُ المعارِف:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلاثَةً يدي ولساني والضمير المحجبا
والحمد لله أولاً وآخراً

مُحَمَّد بَدْر عالَم المِيرَتْهي
عفا الله عنه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قد كنتُ أنشأت أبياتاً إظهاراً للأرْيحِيّة التي أخذتني عند مطالعة مواضع كثيرة من «فيض الباري»، فنظراً إلى إبراز طربي وأريحيّتي، لا أرى بأساً في إيرادها هنا، لتمثّل للناظرين صورةً إجمالية من الكتاب في مستهل أمره.

هَبَّ النسيمُ على القلوب ومالا ... فترحل الحُزْنُ المقيمُ وزالا
فُلِقَ الصَّدِيعُ واطمأنّ معرّسٌ ... مما يُعاني في الرحيل كلالا
جاء البشيرُ فظلتُ أطْرَب بهجةً ... ورجوتُ مِن لَيْلَىٰ الحديثَ وصالا
فالقلب يَطْرَب والعيونُ قريرةٌ ... دَنَت المُنى للطالبين مَنالا
قد فاضَ من فيض الإلٰهِ سحائب ... يَشْفِي القلوبَ زُلالُهَا سِلسالا
أَمْلَىٰ الإمامُ الشيخُ أنورُ علْمَه ... من صدره متدفِّقا فأسالا
فَجَرَتْ ينابيعُ الحديثِ بدرسه ... واللَّهُ أجرى فيضَه يتوالى
قد نَثَّ في درس الصحيح كنوزَه ... تُغني مَحَاويجَ العلوم عِيالَا
حِكَمٌ يمانِيةٌ تفورُ عيونُها ... تَسقي العطاش إلى الحديث زُلالا
دُرَرٌ لَيَفْتَخِرُ الأنامُ بِنَظْمِها ... غُرَرٌ زَهَتْ للناظرين جَمالا
عِقْدٌ فريدٌ في الشروح كأنّه ... بدرٌ تلألأ في الدُّجَىٰ جوَّالا
شرحٌ تَبَدَّىٰ في الشروح كأنه ... بَرْقٌ تألَّق في الدُّجى وتلالا
يحوي معارِفَ جَمّةً وعوارفاً ... ولطائفاً وطرائفاً تتمالا
وحقائقاً ودقائقاً ورقائقاً ... وبدائعاً وروائعاً تتوالى
وجواهراً وزواهراً مُزْدَانَةً ... ومنارةً للحائرين ضلالا
فالشيخُ أنورُ بالبسيط علومُهُ ... كالشمس في كَبِد السما تتلالا
شيخٌ إمامُ العصر مُسْنِدُ وقته ... ما جاء مَنْ هو مثلُهُ أجيالا
وحديثُهُ في العلم صحّ مسلسلا ... وَقفاً ورفعاً مُسْنَداً إرسالا
بحرُ الحقائق والمعارف كلِّها ... قد نال من سَنَدِ العُلا ما نالا
وتواترتْ أخبارهُ مرفوعةً ... حِفْظاً وفَهماً دِقَّةً وكمالا
وَرِعٌ تَقِيٌّ زاهدٌ متواضعٌ ... أضحى لنا للغابرين مِثَالا
أحيا الحديثَ إذا تقادم عهده ... بِعِهاد مُزْنَتِهِ الغِزار فسالا
نفخَ الحياةَ واستحَثَّ عزائماً ... للقاعدين من العَلاء ملالا

فَاهْتَزَّ قلبٌ ميت من روحه ... واحتثَّ أنضاء الجهود كُسالى
ما شئتَ من فضل فَقُلْ في شأنه ... قد نال منزلةً تُكِلّ خيالا
لا غَرْوَ أعطاه الإلٰهُ شمائلاً ... وفضائلاً سبحانه وتعالى
هذا الإمامُ الشيخُ أخرج دُرَّهُ ... بِجَنَانه فبيانُهُ يتتالى
فَأْبْشَرْ بذا المضنون والعِلْق النَّفِيـ ... ـس الجوهر الغالي فعزَّ نوالا
شكراً لجامعه وشَاعِبِ صَدْعِهِ ... قاسى العَنَاء له فبثَّ مقالا
لا غَرْوَ جَامِعُهُ ذكيٌّ فاضلٌ ... قد نال مما يرتضيه منالا
فتسابقتْ أفكاره في ضبطه ... فترى بديعاً معجباً يتلالا
فجزى الإلهُ الحقُّ بذلَ جهوده ... خيرَ الجزاءِ في الجِنَان مآلا
وجزى الإلهُ مَن سعى في نشره ... بكتابةٍ وطباعةٍ مِبْذالا
ثُمّ الصلاةُ على النبيِّ المصطفى ... ليلاً نهاراً بُكرةً آصالا
وآلِهِ مع صحبهِ وتُبَّعِه ... ما سار بدرٌ في السما وتلالا

محمد يوسف البَنُّوري
عفا الله عنه

* * *

المُقَدِّمَة

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ [الإنسان: ٢٩]

لَفْتَةُ نظرٍ إلى تطوُّر نشر الحديث في البلاد العربية، ثم البلاد الهندية، وكلمةٌ في ترجمة إمام العصر صاحب «فيض الباري»، ولمعةٌ من خصائصه في درس «صحيح البخاري» وآدابه العامة في شرح الحديث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، لا سيما صفوةِ البريَّة، وخاتمِ النبوة، محمدٍ المصطفى، وآله وصَحْبِهِ مَا كَفَىٰ وَشَفَىٰ.

وبعد: فللَّه سبحانه في خلقه شؤون وأطوار، حَارَتْ فيها الأفكار، وَكَلَّتْ في بدائعه البصائر والأبصار، وربُّك يَخْلُق ما يشاء ويختار.

رُتَبٌ تَقْصُرُ الأَمَانِي حَسْرَى دُونَهَا مَا وراءَهُنَّ وَرَاء

طَوراً يُشْرِق نوره في سَاعير، وطوراً يتهلَّلُ في طُور سَيْنَاء، وتارةً ينبلج بفَارَان، تنقشع به الظلمات المتراكمة، وتستنير به أنحاء الأرض، إنّ لله في دهره نفحاتٍ، يَصطفي ما يشاء لما يشاء.

اصطفى مكة فجعل فيها بيتاً مباركاً هُدَىً للعالمين، وبعث فيها خاتمَ أنبيائه عليه صلوات الله وتحياته، وجعل دار هجرته المدينة، فتألَّقت أنوارُهَا في أنحاء العالم، وزال كلُّ أمرٍ مَرِيج، وتدفقت أنهارُهَا إلى أقطار مُجْدِبةً، فلم تَلْبَثْ إلا أن اهتزَّتْ وَرَبَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج.

فلم تبرح الأنوارُ تُنْشَر، والظلمات تتقلص وتنزوي، ولم تزل الأنهار تَزْخَر وتموج، حتى تفيهقت العراق والحجاز والشام والأندلس ببحار من علوم القرآن والسنة زاخرة، وأصبحت بلاد خُرَاسان وما والاها تَخْفِق فيها رايات الحديث والسنَّة مرفوعةً زاهرة.

لم تبقَ ناحيةٌ من المعمورة إلا وأصابتها رَشْحَةٌ من وَابِلها الصَّيِّب المِدْرَار، ولم تبق بلدة عامرة إلا وتألَّقت لمعةٌ فيها بطلوع تلك النجوم الثاقبة الأنوار، وذلك قوله ﷺ: «لا يبقى [على ظهر الأرض] بيتُ وَبَرٍ ولا مَدَرٍ إلا أدخله الله [كلمة] الإسلام، بعزِّ عزيزٍ وذُلِّ ذَلِيلٍ»[1].

---

(١) ما بين معكوفتين ساقط من الأصل، والصواب ما أثبتناه كما في مسند الإمام أحمد (٢٣٣٠٢).

قال إمام العصر صاحب «فيض الباري»: لما ظهر الإسلام، وَبَدَت هذه المِلّة النقيةُ البيضاء، لم يكن مَنَاصٌ لأهل الأديان إلا وأن يستنفِذوا وُسْعهم في تهذيب أديانهم، وتنقيح مذاهبهم، حيث آلت إلى مكانةٍ من الظلمات المتراكبة، بحيث ما كان لها أن تبقى بعد ظهور الإسلام، وبعد طلوع ذكائه المشرق، وما كانت أنْ تُعْرَضَ للأُمم في مقابلته إلا أن تعود على صاحبها وَصْمَةَ عار. فأخذ أهل الأديان وعقلاؤهم في تحسين وجوهها، وتقليل تشويهها، وَطفِقُوا يأخذون من الإسلام أموراً يَجْلُون بها ظلماته المحيطة على نواحيها، وَيَجْبُرون بها مواقع الوَهْنِ والفساد، وإليه أشار ﷺ بقوله: «لا يبقى [على ظهر الأرض] بيتُ وَبَرٍ ولا مَدَر...» إلخ. اهـ.

كانت انعقدت المشيئة الأزلية بختم نبوَّته ﷺ، فأكمل اللَّهُ دينَه المُتَكَّفل لِمَا فيه صلاح الناس من أمر دينهم ودنياهم، ومعاشهم ومعادهم، وما فيه كل خير وصلاح. وأتمّ نعمته فأفاض عليهم آلاء ونعماء بهذا الدين من مناهج تيسير، وأسباب تبشير، وتوفير أجر جزيل بعمل يسير، وطُرُق عروج وازدهار. وهذا الدينُ الجامعُ لأمر الدنيا والآخرة هو المَثَلُ الأعلى في الأديان السماوية، وهو الأمر الوسط بين الرهبانية المُلهية عن طيبات الدنيا رأساً، وبين المدنية الخادعة المُفْرِطة في أمر الآخرة. وهذا هو دين الله المَرْضِي، وهو دين الإسلام. فقال عَزَّ مِن قائل: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فكان ديناً وسطاً لأمةٍ جعلها أمةً وسطاً. وكان من مقتضيات الفِطْرة الوُسطى أمراً وسطاً.

وَأَكْمَلَ قَصْرَ النبوة بآخر لَبِنَةٍ بقيت، حتى أصبح قصراً مَشِيداً زاهياً، يأوي إليه مَن أراد أن يدخل في كَنَفِ رحمته. وأصبحت مدينة الرسول ﷺ عاصمةَ الدِّين والعلم الإلٰهي، ومعارف الشريعة السماوية.

وَصَلَ خِيرةُ الخلائق، وصفوةُ الأنبياء إلى الرفيق الأعلى صلى الله عليه وبارك وسلم، فَخُتِمَتِ النبوة وانقطع الوحي. وخَلَّف أصحابه الذين اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ من صفوة عباده بعد الأنبياء. ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٩]، فكانوا أفضلَ هذه الأمة، أبرَّها قلوباً، وأعمَقها علماً، وأقلَّها تكلُّفاً، كما وصفهم حَبْرُ القادسية، كُنَيْفٌ مُلِيء علماً وفقهاً: ابنُ مسعود رضي الله عنه، وكانوا على عِلْم وَقَفُوا، وببصرٍ نافذ قد كُفُوا، وما دونهم من مقصِّر، وما فوقهم من محسِّر. كما وصفهم أعدلُ الأمة بعد الصحابة الإمامُ عمر بن عبد العزيز رحمه الله. فوقفوا أنفسهم وأموالهم تفدية وتضحية في سبيل نشر الدين، وتبليغ الحق وحمل الأمانة. فانتشروا في أقطار الأرض، وتفرقوا في البلاد، وكافحوا ونافحوا عن حَوْزَة الدين والإسلام.

ولم يَحُل أمامهم تواكلٌ ولا تكاسل ولا كَلال ولا مَلَال، ولم يمنعهم اغتراب عن

الأوطان، ولا نزوع إلى الحلائل والأبناء. فافتتحوا البلاد، وفتحوا فيها ينابيع علوم الدِّين، ووضعوا أساساً للفلاح والرشد، فلم ينقرض عصر الصحابة إلا وضَرَبَ الدِّين بالجِران في أقطار الأرض.

ولما انقرض عصرهم خَلَفهم تابعوهم، ونِعم التابعون علماً وعملاً، ديناً وسياسة. ومن آخر عهد التابعين يبتدىء عهد الأئمة المتبوعين، ويأتي دور تدوين الفقه، وعهد تَبَع التابعين، ثم عهد أصحاب الجوامع والمسانيد، والصِّحاح والمعاجم، من كبار المحدِّثين، حتى أصبحت بلاد العرب، وكثيرٌ من بلاد العجم، يموجُ فيها جهابذة الحديث، وأعيان الفِقه، وأعلام السنَّة، ومعالم الدِّين، ما لايُحْصَوْن كثرةً هائلة.

فهذا كتاب «الموطَّأ» لإمام دار الهجرة يُرْوَىٰ عنه بأربع وعشرين طريقاً، ويسمعه منه نحو ثمانين ألفاً على ما يقال، وهذا «صحيح البخاري» لأمير المؤمنين في الحديث يسمع منه عدد عظيم جداً من الرجال.

وهذه الكوفة وحدها من بلاد العراق يتفقَّه فيها على ابن مسعود وأصحابه أربعة آلاف عالم. ويَكتب فيها مثلُ عفان البصري ـ شيخ البخاري ـ وأحمد خمسين ألف حديث في أربعة أشهر ويقول: ولو أردنا أن نكتب مائة ألف حديث لكتبناها. كما في «المُحَدِّث الفاصل» للرَّامَهُرْمُزِيّ. حكاه الأستاذ الشيخ محمد زاهد الكَوْثَرِيّ.

وهذا كتاب «صحيح البخاري» انتقاه الإمام البخاري من ستمائة ألف حديث. وهذا كتاب «صحيح مسلم» انتقاه الإمام مسلم القُشَيري من ثلاثمائة ألف حديث، وهذا «سنن أبي داود السِّجِسْتَاني» انتخبه المؤلف من خمسمائة ألف حديث.

بداية تدوين الحديث

يبتدىء تدوين الحديث على طريقة التأليف في أوائل القرن الثاني، فيسبِقَ فيه ابنُ شهاب، ويتلوه ربيع بن صَبِيح، وسعيد بن أبي عَرُوبة، ثم مالك بالمدينة، وابن جُرَيج بمكة، والأَوْزاعي بالشام، وسفيان الثوري بالكوفة، وحَمّاد بن سَلَمَة بالبصرة، وهُشَيْم بن بَشِير بواسط، وَمَعْمَر بن راشد باليمن، وابن المبارك بخُرَاسان، وجَرير بن عبد الحميد بالرَّيّ، وهكذا وهكذا.

وإلى منتصف القرن الثالث ترى البلاد طافحة عجماً وعرباً، شرقاً وغرباً، بجوامعَ، ومسانيدَ وصحاحٍ، وسننٍ، ومعاجمَ، ومصنفاتٍ، وأجزاء، وأفراد ما يُحَيِّر الألباب. نعم، لم تكن علومهم في قَمَاطِر وصناديق حتى يلجؤوا إلى بحث، ولم يكونوا يتكلَّفون لتأنق، بل كانت قلوبهم عيوناً ثَرَّة، وصدورهم أوعيةً طافحة بحِياضها، فلم تلبث إلا وأن فاضت من أوعية الصدور، وعيون القلوب، إلى بطون القَمَاطر وصفحات الكراريس.

ثم بعد منتصف القرن الثالث يظهر رجال في الأمة في مصر، والشام، والأندلس،

وخُرَاسان، من حُفّاظ الحديث في استبحار وَتَغلُلٍ في الأحاديث، وأصحاب غوص في المسائل، إلى أوائل القرن التاسع للهجرة، ما تُورث العجبَ كثرتُهم.

من حفاظ المذاهب الأربعة

فمن الحنفية: كالحافظ أبي بِشْرٍ الدُّولابي، والحافظ أبي جعفر الطحاوي، والحافظ ابن أبي العَوَّام السعدي، والحافظ أبي محمد الحارثي، صاحب «مسند أبي حنيفة»، والحافظ عبد الباقي، والحافظ أبي بكر الرازي الجَصَّاص، والحافظ أبي نصر الكَلَاباذي، والحافظ أبي محمد السمرقندي، والحافظ شمس الدين السَّرُوجي، والحافظ قطب الدين الحلبي، والحافظ علاء الدين المارِديني، والحافظ جمال الدين الزَّيْلَعِي، والحافظ علاء الدين مُغُلْطاي، والحافظ البدر العَيْني، والحافظ قاسم بن قُطْلُوبُغَا، وغيرهم من الحفاظ الحنفية.

ومن الشافعية: كالحافظ الدَّارَقُطْنِي، والحافظ البيهقي، والحافظ الخَطَّابي، والحافظ عِزّ الدِّين بن عبد السلام، والحافظ ابن دَقِيق العيد، والحافظ العراقي، والذهبي، والمِزِّي، وابن الأثير الجَزَري، والتقيّ السُّبكي، والهَيثمي، وابن حجر، ومَن عداهم من الحفاظ الشافعية.

ومن المالكية: كالحافظ حسين بن إسماعيل القاضي، والحافظ الأَصِيلي، والحافظ ابن عبد البَر الأندلسي، والحافظ أبي الوليد الباجي، والحافظ القاضي أبي بكر بن العربي، والحافظ عبد الحق صاحب «الأحكام»، والحافظ القاضي عِيَاض اليَحْصُبِي، والحافظ المازِرِي، والحافظ ابن رشد الفقيه صاحب «المقدمات»، والحافظ أبي القاسم السُّهَيْلي، وغيرهم.

ومن الحنابلة: كالحافظ عبد الغني المقدسي صاحب «الكمال»، والحافظ أبي الفرج بن الجوزي، والحافظ موفَّق الدين بن قُدَامة، والحافظ أبي البركات بن تيمية صاحب «المُنْتَقى»، والحافظ ابن رجب، وغيرهم مِنْ قبلهم ومن بعدهم خلائقُ لا يُحْصَون عدداً، نبغت في هذه القرون المزدهرة. والقوم كلهم اليوم عيالٌ على مَأْدُبة هؤلاء الأعلام، وأماثل الأعيان.

وبلاد الهند في هذه الأعصار دخلها رجال من المحدثين، وخرج منها رجال في طلب الحديث، فتضلَّعوا، غير أنهم لم يرجع كثير منهم، فلم تنتفع بهم بلادهم، وتجد في رواة الحديث عِدّة من رجال الهند، ولا سيما السِّنْد، ومع هذا فالحق يقال إن بلاد الهند حظها ضئيل جداً من علوم الحديث في تلك العصور الحافلة بالمحدثين في بلاد العراق وخراسان وغيرها. وماذا يُغني كتابٌ للصَّغَاني الذي خلَّفه أثراً بعد عين، بجنب تلك الذخائر الغزيرة والبحار المتلاطمة الأمواج. حيث أصبح عليه فقط مدار درس الحديث إلى قرون، ثم ضُمّ

إليه كتاب «مشكاة المصابيح» بعد بُرْهَة من الدهر مديدة، لا تقلّ عن ثلاثمائة سنة، فكيف تداني وتساهم بهؤلاء النابغين الذين فاضت ينابيع تحديثهم في أنحاء العالم، وطَبَّق الخافقين ذكراهم على توالي القرون.

ولكن لما أخذ الضعف والوَهْن في علوم الحديث من منتصف القرن العاشر للهجرة في البلاد العربية، وقد سبقت سُنَّة الله الأزلية بقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، فانتقلت هذه المزيَّة من أهل هذه البلاد، وقيَّض الله لها حَمَلَةً أمناءَ في بلاد الهند، وأتاح لهذه السعادة مثل المحدِّث الشيخ علي المُتَّقي صاحب «كنز العمال»، المتوفَّىٰ سنة (٩٧٥ هـ)، والشيخ عبد الأول الجونفوري صاحب «فيض الباري» شرح صحيح البخاري، المتوفى سنة (٩٦٥ هـ)، والشيخ عبد الوهاب البرهانفوري، المتوفى سنة (١٠٠١هـ)، والشيخ محمد طاهر الفَتَّني ملك المحدثين صاحب «التذكرة»، و «المغني» و «مجمع البحار»، و «قانون الموضوعات»، المتوفى سنة (٩٨٦ هـ)، والشيخ عبد الحق الدِّهْلَوي، المتوفى سنة (١٠٥٢هـ)، صاحب «اللمعات شرح المشكاة»، وغيرها من كتب نافعة، ثم الشيخ نور الحق ابنه، المتوفى سنة (١٠٧٣ هـ)، صاحب «تيسير القاري شرح صحيح البخاري» بالفارسية، وشارح «الموطأ»، ثم ابنه الشيخ فخر الدين شارح «الحِصْن الحصين» وغيره، ثم ابنه شيخ الإسلام وشرحه على «صحيح البخاري»، بالفارسية مطبوع، ثم ابنه الشيخ سلام الله، وشرح «الموطأ» في عدة مجلدات كبيرة سماه «المُحَلَّى»، ولم يُطبع، توفي سنة (١٢٢٩ هـ).

ونبغ في أوائل القرن الثاني عشر نابغة الأيام، عبقريّ الأنام، الإمام الشاه وليّ الله الفاروقي الدِّهْلَوي، المتوفى سنة (١١٧٦ هـ)، فتضلّع من علوم الهند، ورحل إلى الحرمين، فَنَشِفَ علومهما، ورجع إلى الهند، فكان إماماً لنهضة الحديث. شرح «الموطّأ» لمالك بشرحين، وقرر دراسة الصحاح الستة كلها مع «الحصن الحصين»، وجعل بدل ابن ماجه في الصحاح «موطأ مالك»، وجعله أول الصحاح منزلة، فسعى في نشر الحديث حتى استوى على ساق، وتلاه أصحابه وأنجاله الغُرّ الكرام.

فمن أصحابه: المحدث الشيخ القاضي ثناء الله الفانيفتي صاحب «تفسير جليل»، وصاحب «منار الأحكام» وغيرهما، ولقبه الشاه عبد العزيز بيهقي العصر.

ومنهم المحدث السيد مُرْتَضَىٰ الهندي البلكرامي ثم الزَّبِيدي المتوفى سنة (١٢٠٥هـ)، صاحب «عقود الجواهر المنيفة» و «الإتحاف شرح الإحياء»، و «تاج العروس شرح القاموس».

ومنهم الشيخ محمد معين السِّندي وهو من كبار شيوخ الشيخ محمد حياة السِّنْدي، والشيخ محمد هاشم السَّنْدي المعروف بالمخدوم.

ومنهم الشيخ محمد عاشق الدِّهْلَوي، ومنهم الشيخ محمد أمين الكشميري، وغيرهم من أصحابه البررة الكرام. ومن أنجاله الشيخ الحجة الشاه عبد العزيز، وكان بحراً في العلم والاستحضار، وحيداً في سعة الاطلاع على الحديث وسائر العلوم، موفَّقاً لحل المشكلات والغوامض، والشيخ عبد القادر المحدث والعارف، وتَرْجُمان القرآن، المتوفىٰ سنة (١٢٣٠هـ)، والشيخ رفيع الدين المحدث الضليع المتوفى سنة (١٢٣٣هـ). ومن فيض هذه البيئة الحديثية الوليّ اللهية نشأ رجال في السند نوابغ أصحاب مؤلفات جليلة في الحديث والرجال.

فزاد هذه النهضة المباركة اعتلاء وبهاء. وطَبَّق هؤلاء الأعيانُ أرجاءَ الهند حديثاً وسُنَّةً وقرآناً، فكان من أزهى العصور المزدهرة في علوم الحديث، وأخذ من الشاه عبد العزيز ابن أخيه الشيخ إسماعيل الشهيد سنة (١٢٤٦هـ)، وابن بنته الشيخ محمد إسحاق المتوفى سنة (١٢٦٢هـ).

ثم تلا الشيخ محمد إسحاق صاحبه الشيخ عبد الغني المُجَدِّدِي، المتوفى سنة (١٢٩٦هـ)، غير أنه هاجر إلى المدينة فلم يمكث عهده في الهند طويلاً، وجرت في طَيبة ينابيع علمه الذي نَشِفَه الإمام وليّ الله منها، ثم أخذ الحديث منه أكابر ـ دُيُوبَنْد ـ مثل الإمام الشيخ محمد قاسم النَّانُوتَوِي المتوفى سنة (١٢٩٧هـ)، والمحدث الشيخ رشيد أحمد المتوفى سنة (١٣٢٣هـ)، وعليهما تخرَّج المحدِّث الشيخ محمود حسن الدُّيُوبَنْدي، المتوفى سنة (١٣٣٩هـ)، وأدرك الشيخ المحمود الشيخ عبد الغني، فاستجاز منه أيضاً، ومكث في دُيُوبَنْد يخدُم الحديث والعلم، فتخرج عليه أصحاب حديث وعلم أربَىٰ عديدهم على ألف، حتى نبغ فيهم نابغةُ المحدث الكبير إمام العصر الشيخ محمد أنور الكشميري، فكان خيرَ مثال لعلوم القدماء وشمائلهم، في قوة الحافظة، وشدة الاستحضار، والتبحُّر الواسع، والغوص في المشكلات، واستنباط الدقائق، مع ورع، وزهد، وقناعة، وحسن هدي وسَمْت، من مَلَكَات سامية لا تجتمع إلا في أفراد الأمة وأفذاذها، وحق فيه ما قيل:

أَتَـزْعُـمُ أَنَّـك جِـرْمٌ صـغـيـر وفـيـك انـطـوى الـعـالـمُ الأكْـبَـرُ

أحاول أن أَزُفَّ للناظرين لمعة من ترجمة هذا الإمام، عبقري الأيام، وخصائصه، ولله دَرُّ القائل:

شَـنِّـف بـذِكْـرِ ذوي الأَحِـبَّـةِ مَـسْـمَـعـا فـبـذكـرهـم تـتـنـزَّلُ الـرَّحَـمَـاتُ
فَـبِـحُـبِّـهـم وبـمـدحـهـم وبـجـاهـهـم وافَـى الـسـرورُ وطـابـت الأوقـاتُ

* * *

ترجمة إمام العصر الأستاذ المحدِّث
محمد أنور الكشميري الحنفي

هو محمد أنور بن مُعَظَّم شاه ابن الشاه عبد الكبير ابن الشاه عبد الخالق ابن الشاه محمد أكبر ابن الشاه محمد عارف ابن الشاه حيدر ابن الشاه علي ابن الشيخ عبد الله ابن الشيخ مسعود البزوري الكشميري رحمهم الله تعالى.

رحل سلف الشيخ مسعود من بغداد إلى الهند ونزلوا مُلْتَان، ثم ارتحلوا منها إلى لاهور، ومنها إلى كشمير، فأصبحت لذريته مستقراً ومُقاماً.

من الطبيعي أن للبيئة أثراً غير ضئيل في طبيعة الرجل، وفي تكوين مزاجه، صلاحاً وفساداً.

ومن الطبيعي أن للبلاد أثراً كبيراً في طبع رجالها بطابع خاص في ذوقه وفكرته.

ومن الطبيعي أن للأسباب رباطاً قوياً مع الأمور في عالم الطبيعة.

ومن الطبيعي أن لخالق الطبيعة قدرةً فوق الطبيعة، وأن الطبيعة مقهورة تحت إرادته ومشيئته.

فهذه حقائق واضحة عند أولي الطبائع السليمة لا مساغ لإنكارها. أرى أنها تلاءمت في حق مَنْ حاولت ترجمته برُمَّتها.

كانت أُرُومَته من بيئة خير وصلاح وتقوى وطهارة، تسلسل فيهم الإرشاد بطرق أهله من العارفين والأولياء، من عشرة أصلاب صُلباً فصلباً، فوهبته نفساً مطمئنة، نقية طاهرة.

وكانت بلدته كشمير من أحسن بلاد الشرق الشمالي في جمال الطبيعة، من أوديتها النضيرة ومياهها العذبة، ونسيمها العليل، فكانت روعة الطبيعة، ومظاهر حسنها الرائع، متمثلة في جبالها التي اكتست حُللاً من ألوان الزهر، وأصناف الشجر، وكأنها رياض ذات وَشْي دقيق وتحبير فائق تأخذ بالألباب، وتستولي على القلوب. عنادل تصدح على الأغصان، ومياه تقطر عن الأحجار، في هدوء وسكون، فلا تسأل عن حسنها وجمالها، فكسته رقة في الخيال، ودقة في الفكر، وغوراً في التفكير، وسكوناً في الطبيعة.

ثم تيسرت له أسباب من شوق مُفْرِط، وذكاء مشرق، وشيوخ جهابذة، وتوفيق للجهد الدائب، والسعي المتواصل.

وسبقت المشيئة الأزلية بأن يكون من أكمل رجال العصر علماً وعملاً، فأصبح إماماً،

أُمَّةً في عصره.

وُلِد صبيحة السبت لسبع وعشرين من شوال عام (١٢٩٢هـ) ألف ومائتين واثنين وتسعين من الهجرة، بقرية وُدْوَان على وزن لُبْنَان، من أعمال (لولاب) في مقاطعة كشمير.

تعلَّم المبادىء على والده، وعدة كتب ورسائل على بعض علماء بلاده، ثم سافر في حدود سنة (١٣٠٧ هـ) إلى مديرية هَزَارة على حدود كشمير، فقرأ كُتباً من فنون المنطق والفلسفة وغيرهما على جهابذة الفن، ثم وصل إلى ديوبند قُرْطبة العلوم في الهند، فقرأ كتب الحديث، واستكمل ما بقي من العلوم، وفرغ في حدود سنة (١٣١٢هـ) منها، فاضلاً بارعاً، يتدفق تياره علماً وكمالاً، فراح إلى دِهْلِي قاعدة بلاد الهند، ومكث ينشر علمه بدرس وإفادة عدة سنين، حتى بدأ هناك بوجوده معهد علمي، يسمى اليوم مدرسة أمينية، فنما فضله، وذاع صيته، وأضحى وله مزايا لا تُبَارَى.

ثم رجع إلى بلده وأسس معهداً دينياً، سماه «الفيض العام»، واشتغل بنشر العلم، وَرَأْبِ الصَّدْع، ثم حج سنة (١٣٢٣هـ)، ومكث هناك شهراً ولا سيما في المدينة زادها الله تشريفاً، وطالع كتباً جمة بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة الحسيني، والمكتبة المحمودية، وكانت فيهما ذخائر من المخطوطات القيمة، فانتهز الفرصة لها حتى طفح صدره بعلومهما، ثم رجع إلى بلاده وأقام بُرهة، ثم حاول الهجرة من بلاده إلى الحرمين، زادهما الله كرامة، ووصل إلى دُيوبَنْد في حدود سنة (١٣٢٥هـ) للقاء شيخه، شيخ العصر محمود حسن رحمه الله تعالى وداعاً، فأشار عليه بالإقامة بديوبند، ولم يكن يُفْرِط في امتثال أمره، فأقام، وأمره بتدريس صحيح مسلم، وسنن النسائي، وابن ماجه، ثم أراد شيخه رحمه الله تعالى سفر الحج، فخلَّفه مقامه، وجعله شيخ المعهد وشيخ الحديث، فكان يُدَرِّس «صحيح البخاري» وجامع الترمذي وغيرهما، ففاضت علومه ومزاياه، إلى أن استقال من منصب درسه في سنة (١٣٤٥هـ).

ورحل في شهر ذي الحجة سنة (١٣٤٦هـ) إلى دابهيل في مديرية سُورَتْ على بعد نحو ١٥٠ ميلاً من عاصمة بمباي، فظهر بوجوده معهد كبير يسمى اليوم بالجامعة الإسلامية، وإدارة تأليف تسمى المجلس العلمي، فاشتغل بالدرس والتأليف بِضع سنين، إلى أن وافاه القدر المُبْرَم، فقضى نحبه في ديوبند في ثلث الليل الآخر ليلة الاثنين، ثلاث صفر عام اثنين وخمسين من القرن الرابع عشر للهجرة (١٣٥٢هـ) رحمه الله ورضي عنه.

قال محقق العصر شيخنا العثماني: سمعت عن حكيم الأمة مولانا الشيخ أشرف علي التَّهَانَوِي أنه قال: رأيت عن بعض المستشرقين كلمة في الإمام الغزالي، أنَّ وجود مثل الغزالي في الأمة المسلمة دليل عندي على أن الإسلام دين سماوي حق. اهـ.

ثم قال الشيخ التهانوي: وعندي وجود الشيخ محمد أنور الكشميري من الدلائل على

أن الإسلام دين سماوي حق. اهـ.

وقال مفتي الديار الهندية الشيخ محمد كفاية الله الدِّهْلَوي، في كتاب له إلى بعض معارفه: إن فكرتي وحواسي أضحت معطَّلة بِدَاهِيَةِ موت الشيخ محمد أنور، رحمه الله، كان أُمَّة، إماماً مِقداماً، إنه لم يمت، ولكنه مات العِلم والعلماء. اهـ.

كان والده شاعراً مُجِيداً بالفارسية، وكان عالماً فاضلاً في الفرائض والعلوم الرياضية وبعض العلوم الآلية، فأصبح الشيخ رحمه الله شاعراً وفاضلاً في تلك العلوم في بيته.

وكان علم الفقه وعلم الفتوى في كشمير مما يُتَسَابَق في حَلْبة رهانها، فأصبح الشيخ فقيهاً مفتياً لا يُدْرَك شَأْوُه ولا يُشَقّ له غبار، حتى أفتى ثلاث سنين فيها المفتيين والفقهاء في الحوادث والنوازل والفتاوى العقيمة، ولم يفتقر إلى مراجعة كتاب.

وصل إلى دُيوبَنْد، فأدرك رجالاً جمعوا إلى علومهم الناضجة الرسمية علوم العرفاء والأولياء، وجمعوا إلى دقة المدارك وإصابة الرأي، رفقَ القول وصِدق اللهجة، أصحاب هيبة ووَقار، وأصحاب سنة وورع، وزهد وتقوى. فكانوا علماء عرفاء، ربانيين أصفياء، فكسته صحبتهم وإفادتهم علماً صحيحاً ورأياً صائباً، وشَغَفاً باتباع السنة، وبهاء في المَلَكَات الفِطرية، وجمالاً في الأخلاق والآداب.

وكانت طبيعته مغرمة بالتوسع في الاطلاع والتدقيق في الموضوع، ورُزِق توفيقاً دائباً، فلا يسأم ولا يلحقه كَلال. فأصبح بحاثاً محققاً، نظَّاراً متبحراً غواصاً في المشكلات، موفقاً لحلِّ الغوامض، لطيفَ الفكرة، دقيقَ الاستنباط، سريع الحَدْسِ.

لا ينفسح المجال لذكر شؤون حياته العلمية، وقد أفردتُ لها جزءاً خاصاً حافلاً. وذكرت هناك ما فيه مَقْنَع وبصيرة سميته «نفحة العنبر من هَدْي الشيخ الأنور»، وبثثتُ طرفاً من علومه المختصة بالقرآن في مقدمة «مشكلات القرآن»، ويكفي أن أقول: لم يستغن عن علمه، مثل حكيم الأُمَّة التَّهَانَوِي، ومحقق العصر العثماني، بل أكابر شيوخه الذين تلقى العلم عنهم، ولم يستغن عن آرائه الدقيقة في الفلسفة، مثل الفيلسوف الدكتور السر محمد إقبال الهندي[1]، ويكفي ما أثنى على إصابة رأيه، ودقة فكرته، شيخه أستاذ العالم محمود

---

(١) صدع بالاستفادة عنه في المحاضرات التي ألقاها في (مدراس)، وشاهدت ذلك في لاهور (حين كنت زميلاً خادماً لإمام العصر في سفره إلى كشمير، سنة ١٣٤٨هـ عند الإياب عن كشمير. وكان استصحبني معه) وكان يسأله في مشكلات القرآن، ودقائق الفلسفة التي ذكرها إمام العصر في قصيدته «ضرب الخاتم» وسمعت سنة ١٣٤٧هـ في ديوبند من المحترم عبد الله جغتاي، من أخص أصحاب الدكتور المرحوم، أن الدكتور إقبال يثني كثيراً على دقة رأيه في غوامض الفلسفة ويتمنى أن يشرح إمام العصر نفسه أبياته الغامضة في «ضرب الخاتم على حدوث العالم».

حسن الدُّيُوبَنْدي رحمه الله.

وسأسرد عليك كلماتٍ من باب حياته العلمية: ما يختص بالحديث، وما يختص بدراسة صحيح البخاري، وما يختص بأحاديث الأحكام، ومؤلفاته في الحديث وأسانيده.

وَحَدِّثْنِي يا سعدُ عنها فزِدتَّنِي جنوناً، فَزِدْنِي من حديثِكَ يا سعدُ

آدابه العامة في تدريس الحديث

كان له رحمه الله خصائص في الدراسة، تستولي على القلوب روعتها، لم نرها في أحد من بعده.

منها: أنه كان يُلَخِّص الكلام في رجال الحديث إن كان لذكرها حاجة في الباب، أو فائدة يُستحسن ذكرها. وكان لا يُطيل الكلام في الجرح والتعديل حيث كان يقول: ولو أُكْثِر من نقل كلامهم في الرجال، وما فيه من كثرة القيل والقال، لأنه ليس عندي كبير ميزان في الاعتدال وبعضهم يسكت عند الوِفاق، ويجرح عند الخلاف، وإذا دُعِيَتْ نَزَالِ. وهذا صنيع لا يشفي ولا يكفي، وإنما هو سبيل الجدال.

نعم، اعتنيت بتعيينهم، ومعرفة عينهم، فيستطيع الناظر من المراجعة والمطالعة، ويتمكن من تخمير رأيه لا بالمسارعة.

ومنها: أنه كان عُني بمنشأ الخلاف بين الأمة، ولا سيما في المسائل التي تتكرر على رؤوس الأشهاد، فكان يذكر في هذا الصدد أموراً تطمئنُّ بها القلوب.

ومنها: أنه كان يعتني بنقل غُرَر النُّقول من كلام القدماء، والنقول التي تكون بعيدة عن متناول أيدي أهل العلم.

ومنها: أنه كلما ذكر كتاباً أو مؤلفاً في صدد النقل، فكان يكشف عن منزلته في العلم وخصائصه، قلّما يجدها الناظر في كتب الطبقات والتراجم، بغاية من الإنصاف. من غير غض عن قدره، أو إطراء في شأنه، ليكون بصيرةً للطلبة، ووسيلة إلى العلم الصحيح.

ومنها أنه كان عُني بحل المشكلات، أكثر منه بتقرير الأبحاث، وتكرير الألفاظ.

ومنها: أنه كان يهمه إكثار المادة في الباب، دون الإكثار في بياتها وإيضاحها، كأنه يَضَنّ بعلمه المضنون. ثم إن هذا الإيجاز في اللفظ، والغزارة في المادة أصبح له دأباً في تدريسه وتأليفه، وكان كما قال علي رضي الله عنه: ما رأيت بليغاً قط إلا وله في القول إيجاز، وفي المعاني إطالة. اهـ. وحكاه ابن الأثير.

ويحكى أن حكيم الأمة الشيخ التهانوي يقول: إنّ جملة واحدة من كلام الشيخ ربما تحتاج في شرحها وإيضاحها إلى تأليف رسالة. اهـ.

وكأنَّ رأيه ما كشف عنه ابن النَّديم في الفهرست: النفوس ـ أطال الله بقاءك ـ تشرئِبُّ

إلى النتائج دون المقدِّمات، وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل في العبارات. اهـ.

ومنها: أنه كان لا يقتنع بذكر ما يختص بالموضوع، بل ربما كان يذكر أموراً لمناسبة دقيقة بينها وبين الموضوع، حرصاً على بيانها إفادةً للطلبة.

ومنها: أنه كان ربما يذكر أشياء وينقدها نقداً علمياً، ويدل الطلبة على منهاج النقد العلمي، ويضع لهم أساساً لذلك، ثم يستدرك ذلك - تنبيهاً لهم - بمزيَّة كلام أهل العلم، والاحتياط عن الخوض في شأنهم بما تأبىٰ جلالةُ قدرهم.

وهذه أمهات خصائصه العامة في دراسة الحديث.

خصائصه في تدريس «صحيح البخاري»

كان رحمه الله تعالى يُدَرِّس أولاً في عهد إقامته بدُيُوبَنْد «جامع الترمذي»، و «صحيح البخاري»، فكان أفرز دراسة جامع الترمذي لتحقيق أحاديث الأحكام، وتبيين مذاهب الأئمة واستيعاب أدلتها، وترجيح ما هو الراجح منها، كما كان هو دأبه، ولما اقتصر تدريسه في الآخر على صحيح البخاري، فكان يعتني فيه بما كان يعتني به في جامع الترمذي، ما عدا المهمات التي كان يتصدى لبيانها في الصحيح، فانتهت خصائص تدريسه لصحيح البخاري إلى أمور:

الأول: أنه كان يستوعب أدلة المذاهب بما لها وما عليها في أحاديث الأحكام، على حسب دأبه الذي ذكرته في آداب دراسته العامة.

الثاني: أنه كان ينتقي غُرَر النقول من شروح الصحيح، كأنها ورقة موضوعة بين عينيه، يذكر ما يشاء، ويَذَر ما يشاء.

الثالث: أنه كان يُلَخِّص كلام الشارحين، ويأمر بالمراجعة إن كان هناك بسط في الموضوع، ويزيد عليه ما كان عنده من الأبحاث الدقيقة، والمواضيع المهمة، مما جمع الله في صدره المتلاطم بالعلوم والمعارف.

الرابع: أنه كان يتعرَّض لكثير من مُشكلات العلوم، وكان يذكر في حَلِّها نفائسَ ما يساوي رحلة، حيث يكون الصحيح آخر كتاب، في آخر سنة من الفراغ، على نظام الدراسة في الهند غالباً، ولا سيما لمسائل الكلام، لأن الإمام البخاري أيضاً يتعرَّض لها كثيراً، ولا سيما في كتاب التوحيد الموضوع لذلك. فكان يتكلم فيها كمسلك المحققين من قدماء المتكلمين، وكان يقول: كلام البخاري في التوحيد على مسلك القدماء، وهؤلاء الشارحون لما استأنسوا بالتوحيد الذي دار بين المتأخرين، ربما تَقْصُرُ مداركُهم عن مدارك الإمام البخاري، فيتأوَّلون كلامه بما هو بريء عنه، اهـ. ومن أجل ذلك كان يعتني بأمثال هذه المواضع اعتناءً بليغاً.

الخامس: أنه كان يضع عن يمينه ويساره كثيراً من كتب الحديث، ولا سيما من متون الحديث، فإن كان فيها إشكال في موضوع يتعلق بالصحيح، فكان يفتحها ويقرأها على الطلبة، ويَحُلّ الإشكال، أو كانت هناك فائدة تلائم الموضوع فيذكرها بعبارتها. فكأنَّ درسَ الصحيح كان درساً لسائر الأمهات، بل ما عداها أيضاً.

فهذه مميزات درسه لصحيح البخاري. لا تجد بعضها في درس غيره. ومن أجل ذلك، كلُّ مَن كان ضليعاً في العلوم، واسعَ الاطلاع، حَدِيد الذهن، قوي الحافظة، ثاقب الفكر، كان يقوم من عنده بحظٍّ وافر، وبصيرة نافذة، ومن ثَمَّ كان درسه منشأ لإخْفاق القاصرين، ومن لم يكن في ذهنه متَّسَعاً لأمثال هذه الأبحاث الجليلة.

ميزته في شرح أحاديث الأحكام

كنتُ قد ذكرتُ عَشْر خصائص من آدابه في شرح أحاديث الأحكام في «نفحة العنبر»، ولا فُسحة في الوقت لذكرها تفصيلاً، وإنما أريد لفتَ النظر إلى جملةٍ منها باختصار مع إيضاح وزيادة.

منها: أنه كان هَمُّه في الأحاديث التي اختلف أتباع أهل المذاهب في معانيها، أن يقف على غرض الشارع، فإذا استبان عنده استمسك به، ولم يَحْفِل بعموم اللفظ، ولا باختلاف اتباع المذاهب.

مثاله: ما في «فيض الباري» من ص ٤ إلى ص ١١ من الجزء الأول، فراجعه وقابله بما ذكره الشارحون حتى يطمئنَّ به قلبُك.

ومنها: أنه إذا تعددت طرق الحديث فلم يكن يدير الكلام على طريقة واحدة، بل كان يجمعها إن أمكن الجمع، وإلا فيتوخى ما هو أوفق بغرض الشارع أو أقرب إليه.

مثاله: ما في «فيض الباري» في المواقيت من الجزء الثاني من شرح قوله ﷺ: «من أدرك ركعةً من الصبح»... إلخ. فراجعه.

ومنها: أنه إذا تجاذبت الأحاديث، وتضاربت نصوص الشارع، ولم يتعيَّن غرضُ الشارع بيقين، وكان الكلُّ سائغاً عنده، فيحمل اختلاف الأئمة في أمثال هذا على الأولوية، ولم يكن يَزْعُمُه مخالفاً للمذهب ولا خروجاً عنه، راجع لمثاله: بحث الترجيع في الأذان، واختلاف الجهر والإسرار بالتأمين، ورفع اليدين في غير التحريمة، من الجزء الثاني من «الفيض». وإن تعيَّن غرض الشارع كان هو المَحْمِل الصحيح عنده. راجع باب وضوء الرجل والمرأة ومسألة جواب الأذان.

ومنها: إذا اختلفت الروايات من صاحب الشريعة، واختلفت الرواية عن الإمام أبي حنيفة فكان مَحْمِل كل رواية على كل حديث، وكان الكل جائزاً، وإن تفاضلت في الرتبة